Journal of Alasmarya University
Volume 11, June 2009

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الحادي عشر، يونيو 2009

الطرق الصوفية وأثرها في مكافحة الاستعمار الحديث
الطريقة الأسمرية نموذجاً

د. مصطفى حامد رحومة*

تـزامن المد التوسعي الاستعماري الأوربي الحديث في الوطن العربي مع تدهور القـوى العـربية وضـعفها، وذلـك بعـد تدخل العناصر الخارجية في الحكم واحتكارهم للـسلطة لعـدم ثقـة المـتدخلين في ذلـك بالعرب كونهم غرباء وفى نيتهم الحرص على استقرارهم في السلطة حينذاك ابتداء من عهد المماليك في مصر ومروراً بعهد العثمانيين الـذي طـال بقاءه في البلاد العربية كما هو معلوم، وذلك رغم ما كان له من محاسن في المحافظـة علـى الإسـلام واعـتماده كمـنهج في نـشره بين الناس وضرورة اعتناقه إذ رأى سـلاطين الدولـة العثمانية الأوائل أن ذلك ضرورياً مثل السلطان محمد جلبي الذي كان يجمـع الغبار والتراب الذي يلحق بملابسه نهاية المعركة ويحتفظ به ليوضع تحت رأسه عـندما يمـوت ويـدفن[1] وأصبح العرب أصحاب البلاد الحقيقيين من الدرجة الثانية في حكـم بلادهـم، فقل بذلك اهتمامهم بالوضع الأمني بشكل عام، فعاد الاهتمام إلى إعادة الروح الوطنية وتنميتها والمحافظة عليها بعد اندماج الشباب في الطرق الصوفية والانتماء إلى الزوايا، والكتاتيب لتلعب دورها بين مريديها، ويمكن تقسيم الموضوع إلى ما يلي:

1. الطرق الصوفية.
2. الطريقة الأسمرية كنموذج.

---

* جامعة الفاتح.

1- خليل اينا لجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار ترجمة محمد الأرناؤوط. دار المدار سنة 2000م ص67 وما بعدها.

3. ظهور الاستعمار الحديث وأسبابه.
4. دور الطرق الصوفية في تزكية الروح الوطنية.
5. مكافحة الاستعمار الحديث.
6. نتائج الجانب الديني في التحدي للاستعمار.

الطرق الصوفية

نظـرا لـتدهور شئون الحكم واقتصاره على المدن الرئيسية في أواخر عهد الدولة العثمانـية لـضعف السيطرة وتدخل الولاة العثمانيين في شئون الولايات العربية العثمانية بـدأت الحـركات الدينـية في الظهـور كمـا ظهرت على السطح دويلات صغيرة بالشمال الأفريقـي كانـت إقليمـية ومحـدودة الـسلطة في بعـض الأحيان؛ زد على ذلك أن الدولة العثمانـية تـركت هـذه الطـرق الـصوفية تـبرز في البلاد الأصلية كما جاء في وصف ابن بطـوطة ذلـك بقوله: وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية في كل بلد ومدينة وقرية، ولا يـوجد في الدنيا مثلهم أشد احتمالا بالغرباء من الناس وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحـوائج والأخـذ علـى يـد الظلمـة وقـتل الشر، لما لحق بهم من أهل الشر، والاخى[2] عـندهم رجـل يجتمع بأهل الصناعة وغيرهم من الشباب الأعزب والمتحدين ويقدمونه على أنفسهم، وتلك في الفتوة أيضا[3].

وقـد انتشرت الزوايا والتكايا ليلتقي فيها الناس منها من طال عمرها وامتد أثرها خـارج البلاد التركية لذلك نشأت الحركات الصوفية، وإن كان وجودها قبل ذلك بكثير، وبذلك كان منذ انتشارها في البلاد العربية وغيرها، خصوصاً بعد القضاء على الانكشارية في عهـد الـسلطان محمـود الثاني سنـة 1808-1839[4] ولم يكن انتشار الطرق الصوفية هـذه في الـبلدان العـربية بدعـوة عثمانية، ولكنه كان نتيجة الشعور بالتسلط المحلي سواء كان من جانب الولاة العثمانيين أو من جانب الشعور بضرورة الوصول إلى سدة الحكم، ولكـن ذلـك لم يـتأت إلا باتخاذ مناهج يمكن الوصول بطريقتها إلى ذلك[5]، وكان طرد الـسلطان محمـود للإنكـشارية قـد أعطـى فرصـة للمساهمة في قيامهم بإنشاء الحركات

2- الاخى: زعيم قوم أو رئيس أخوية شبه دينيه في نهاية العهد السلجوقي ومطلع العهد العثماني.
3- أحمد عبد الرحيم مصطفى: أصول التاريخ العثماني، دار الشروق 1402، ص 181، رقم ص 187
4- المصدر نفسه. ص 190.
5- تيسير بن موسى: المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، الدار العربية 1988 ص 293.

الصوفية رغم عمق وجودها الزمني في الوطن العربي.؟

وكانت الصوفية الدينية التي نشأت في البلاد العربية أو أنشئت نتيجة عوامل متعددة تبدع في تلقين مريديها ومناهجها الدينية وحثهم على التمسك بالوحدة، ومكافحة العنصر الأجنبي الذي بدأ يحل بالأقطار العربية، وقد أعطت بعض الطرق الصوفية فرصة في مساعدة الأجانب، وساهمت في ذلك، حيث إن بداية القرن التاسع عشر كان بداية التوسع الاستعماري الحديث، وهذا بطبيعتة كان ممكناً لأن الاستعمار قبل التدخل العسكري أو الاقتصادي في الوطن العربي درس الطريق التي يمكن الدخول من جانبها في ذلك التدخل، عن طريق الرحالة الأجانب والرحلات الاستكشافية وكان من بين هذه الطرق، الطريقة القديانية التي أسسها أحد الإنجليز وانتشرت في أفريقيا والهند وإندونيسيا وساهمت بدورها في إسكات الجانب السياسي، وضربت على الوتر الديني، وهذا ما أدى إلى بعض الطريق الصوفية الأخرى، حيث إنها ابتعدت عن المنهج السياسي الذي ترفه السلطة العثمانية وترفض هذه بالاتتعارض مع منهجها الذي انطلقت من أجله، فالعثمانيون كانوا قد جربوهم بما لهم وعليهم، لذلك كان لابد من الصمت لا لهذا ولا لذلك[6]، وترك الأمور السياسية جانبا والاهتمام بالجانب الديني.

كانت حركة الجهاد ضعيفة إلى حد ما، لذلك تركز اهتمامهم على الجانب الاجتماعي أكثر من الجانب السياسي والعسكري لأسباب عدة كان أهمها:

1. الشعور بخطر المطاردة السياسية، وقد ظهر هذا أمام حركة يحي السويدي مثلاً، وحركة سراج الدين إذ تعرض أصحابها يعنى الأخيرة للمقاومة ضد الغزو الإيطالي فتعرضوا في ذلك للمحاكمة والتحقيق، بينما اعتمدت الطريقة السنوسية السرية الكاملة وابتعدت عن الظهور في الجانب السياسي فأنشاها مؤسسها في الكفرة ثم في الجغبوب، فنجح مريدوها في الدين وتغاضت الدولة العثمانية عنها مادامت لم تمس الحكم من بعيد أو من قريب[7].
2. اعتماد الطرق الصوفية الجانب الأمني لحماية تجارة القوافل مثلا مدة من الزمن ابتعدت عن الاهتمام بالوضع الاقتصادي أو الاجتماعي الذي كانت عليه البلاد، وبما كان الحكام يقومون به من عبث ومشاكل في استغلال طريقة جمع الضرائب

6- تيسير بن موسى: المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، الدار العربية 1988 ص 66-67

7- المصدر نفسه ص 90، ويعنى الحركات الدينية في الصوفية.

وغيرها من المشاكل الأخرى.

3. الشعور بعدم إظهار التحدي للاستعمار الأجنبي فحال مريدوها إلى التوحيد والتسبيح وضرب الدفوف فحققوا بذلك هدفهم الأصلي المراد البحث فيه بأنه جبهة التدخل الأجنبي المعني وقد يتحركون في ذلك بشيء من السرية الكاملة.
4. التبرك بالجانب الديني الذي لا يختلف عما جاء به القرآن والسنة النبوية وضرب الدفوف، ودعوة المريدين للتضحية والفداء، وركزت هذه الطرق الصوفية على الجانب الديني، ولم تختلف بعض الطرق عن بعضها كثيراً في ذلك.

وقد ظهرت بعض الطرق في ليبيا كان أهمها: الطريقة الشاذلية وفروعها ومنها، الزروقية، والطريقة السلامية والطريقة المدنية والطريقة العيساوية والرفاعية، والطريقة السنوسية. كما دخلت بعض الطرق الأخرى من تركيا وكان أهمها ما جاء بها الأتراك الانكشارية غير إنها لم تنتشر بين الناس، وزالت بزوال الأتراك ومنها، الطريقة البكتاشيه والقلندرية والنقشبندية المولوية.

الطريقة الأسمرية نموذجاً

تحدد في البند السابق إنها أهم الطرق وكيف نشأت وهنا نطرح الطريقة الأسمرية للتعرف على نشأتها وموقف الحكومة المحلية منها وكيف استطاعت أن تصمد أمام التيار السياسي الذي كان في ليبيا، وإلى أي مدى حصلت على ذلك بأن تواصل نشاطها هل على يد مؤسسها أم على أفكاره أم ماذا؟

من هنا نبدأ بما كانت عليه الطريقة الأسمرية، فمن حيث النسب ترجع في تأسيسها إلى الولي الصالح عبد السلام بن سليم الأسمر[8]، وهى الطريقة التي نشأت ببلدة زليطن على يد فواتير زليطن الذين كانوا مختصين بالهيبة بين الناس وتربطهم علاقة نسب بعبد السلام بن سليم الأسمر هذا مؤسس الطريقة الأسمرية المتفرعة عن الشاذلية، وقد اشتهر بكراماته المتعددة ونالت احترام الكثير من المريدين وغيرهم، وكان سبب

8- عبد السلام بن سليم محمد بن سالم بن حميدة بن عمران بن محيا سليمان بن عمران بن أحمد. إلى الآخرين علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- ويمكن الرجوع في ذلك إلى مصطفى عمران رسائل الأسمر عبد السلام بن سليم الإدريسي الشريف الحسني إلى مريديه المنارة الإسلامية 2002 ص 11-12 مقالات سونيا محمد سعيد البنا: فرقة الانكشارية، امتراك للطباعة والنشر 2006. ص 27-28. ثم الشيخ كريم الدين الباروموني: تنفتح روضة الأزهار في مناقب عبد السلام. طرابلس، مكتبة النجاح (د.ت)

تأسيسها سوء الأحوال الثقافية العامة في البلاد والظروف التي كانت عليها من التحدي الداخلي لظهور الانكشارية وعملية القضاء عليها حيث إن الانكشارية[9] قد ساهمت في إنشاء الطرق الصوفية أيضا في تركيا واعتمد عليها الأتراك العثمانيون في ترسيخ حكومتهم منذ القدم، وذلك لما كانت تؤديه من خدمات للسلاطين واعتبروها حزام الأمان لكل من تولى منهم سدة الحكم، لكنهم في النهاية استغلوا نفوذهم فادوا إلى ضعف الدولة العثمانية وإنهم تحصلوا في ذلك الكثير خاصة في عهد السلطان سليم الأول إذ إنهم انتخبوه في السلطة وكان عددهم يناهز 19 ألف نسمه، ولما ازداد تدخلهم وساء تصرفهم للدولة رأى زعماء حركة الإصلاح في تركيا القضاء عليهم والتخلص منهم كما اتضح في عهد السلطان محمود الثاني الذي جمع منهم أعدادا كثيرة في معسكرات معينة وقصفهم بالمدفعية وهرب من نجا منهم إلى بقية الولايات العثمانية واستغلوا نفوذهم كما يريدون[10].

كان القضاء السياسي قد جعل المتمردين والعصاة يبحثون عن مآرب سياسية في ذلك فانتهجوا الجانب الديني الذي يمكن أن يوصلهم إلى أهدافهم المنشودة، وكثيراً ما نجحت حركات استقلالية وكونت دولاً عمرت طويلاً مثل العهد القرمانلى في ليبيا، ومحمد علي في مصر وغيرهما ولكن نشوء الزوايا كان على مبادئ أقل من ذلك لعدة عوامل أهمها:

1. حرص الدولة العثمانية وترصدها لأية وسيلة تخلص من كيان الدولة الأم.
2. الحركة الأسمرية لم ترغب في قيام نظام سياسي بل ركزت على النظام الديني.
3. اهتمام المريدين بكرامات وخوارق الشيخ الأسمر دون التفكير في أكثر من ذلك[11]، وقد كان للزاوية الأسمرية مكانة مرموقة فاقت معاصريها من بقية الزوايا الأخرى حيث أصبحت منارة ثم جامعة للدراسات الإسلامية، وتميزت بحفظ القرآن والعلوم الدينية يرد إليها الطلاب من أقاصي البلدان لطلب العلم من كل حدب وصوب، وقد زاد الاهتمام بها في الوقت الحالي أكثر، كما ظهرت الطريق الزروقية والسنوسية والعروسية التي كانت من أقدم الطرق الصوفية بالشمال الأفريقي، وإن هذه الطرق قد تعرضت للمتابعة والاضطهاد كما تعرضت الطريقة الأسمرية. خاصة إلى

9- أحمد عبد الرحيم مصطفى: المصدر السابق 1 191 192.

10- المصدر نفسه ص 191-192.

11- د. كريم الدين البرمونى: المصدر السابق ص 4-381.

مؤسسيها مثل عبد السلام الأسمر الذي ولد في زليطن ثم انتقل إلى ساحل الأحامد بزليطن ثم هاجر إلى طرابلس بعد أن قتل ابنه عبد الدائم وسكن قرب مسجد الناقة وواصل دعوته الإصلاحية في طرابلس بهذا المسجد إذ كانت طرابلس حينذاك تعيش في ظل حكم الشيوخ الذين وصلوا إلى سدة الحكم بعد أن انفصلوا عن الدولة الحفصية بتونس سنة 866هـ 1460م[12].

وقد عم الثراء والملك بالبلاد حينذاك بطرابلس لدرجة أن بعض الأثرياء من تجار طرابلس أكرم جماعة من الرحالة من الأسبان زاروا طرابلس كرماً لم يثبت أنه أكرم غيرهم، حيث دق حبة لؤلؤة وبذر مسحوقها على الطعام وكانت هذه الظاهرة قد أعجبت من حضر هذه المائدة زد على ذلك أنه لم يجد سكيناً عندما أراد كسر بطيخة يومها فطلب من جيرانه ذلك، ولم يحصل على السكين إلا بصعوبة، حيث قيل إن البلاد لا يوجد بها سلاح يمكن أن تحارب به واضطرت إلى أن تعيش بسلام، لكن الأجانب دعوا قواتهم للتحرك إلى ليبيا، إذ جاء الأسبان لاحتلال البلاد سنة 1510م كما هو معروف وربما تكون مفتعلة من كاتبها على اعتبار أنهم سهلوا وسيلة الاحتلال فحسب، ويتضح ذلك من خلال موقف الليبيين من حصر الأسبان داخل المدينة واستعانوا بتونس للتخلص منهم، ثم استعانوا بالدولة العثمانية، فكيف يقال: إنهم كانوا مفتقدين لكل السلاح والجيش لمواجهة القراصنة المعتدين في مثل ذلك الزمان[13].

انتقد عبد السلام الأسمر وضع مدينة طرابلس لما كانت عليه من إهمال، وحذر أهلها من العدو الذي كان على مقربة من ليبيا حينذاك. وهم الأسبان يتربصون بالاستيلاء عليها كما ورد في رسائله[14]، كما كان يدعو حكام البلاد على الحرص والعدل ورأوا ذلك أنه يدعو إلى الإحاطة بهم فنفوه إلى غريان هو وأصحابه، وكان قد لقي ترحيباً كبيراً من بعض أهل البلاد مثل أولاد ساعد (أولاد بوسلامة) لكنه لم يرتاح له بال في غريان لدس الحكومة المحلية له وأخذ الحذر منه لذلك عاد إلى بنى وليد واستقر في قلعة بن سوني، أو قلعة سوف بالجبال هناك، ورغم ذلك طارده الوالي العثماني الموجود في طرابلس حينذاك لكن حسب الروايات الواردة حوله أن الوالي قد حلم به أنه إنسان

12- مصطفى عمران بن رابعة: المصدر السابق ص 32-33.

13- شارل فيرو: الحوليات الليبية نقلها إلى العربية محمد عبد الكريم الوافي، طرابلس: دار الفرجانى، بدون تاريخ ص 94.

14- كريم الدين البرمونى: المصدر السابق ص 17. مصطفى بن رابعه: المصدر السابق. ص 37-38.

مـبارك، فعفـي عنه وأشار إليه بأن يختار أي مكان يريد الاستقرار به يذهب إليه ويستقر فيه فارتحل ومريديه إلى تاورغا[15] ومنها إلى مصراته ثم عادوا إلى زليطن مسقط رأسه، ومكـان زاويـته حيث استقر بها حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى سنة 981هـ.عليه رحمه الله وقد تكونت الزاوية الأسمرية التي نحن بصددها، وكان قبل وفاته قد قسم تركته على أنه أوقـف ثلـثها للـزاوية والثلثين لأبنائه وأخذ ربع الثلث الموقوف على الزاوية يستفيد منه حتى ينتهي ثم يرجع إلى حبس الزاوية[16].

شخصية عبد السلام الأسمر

حـيث إن عـبد الـسلام الأسمـر عـاش في بيـئة لا تخلـو مـن عـدة أشياء وصفها المتتـبعون لحـياته أنـه تعلـم القرآن الكريم في كتاب شيخه علي بن عثمان الفيتورى ثم واصـل تعلـيمه في زاويـة الـدكالى، ثـم العزم على الزهد والارتحال، وكان داعيا ومربيا لتلامـيذه ومـصلحاً فكان يجالس الفقراء ويحفظ الود، جريئاً وقوياً في الأمر بالمعروف والنهـى عن المنكر، وكان إسلاميا نشطاً لذلك كثر حساده، وقد بذل في ذلك الكثير من الجهد والوقت، وكان أشعري العقيدة مالكي المذهب[17].

وكـان علـى خلـق عظيم، «كان رحمه الله متوسط القد في الغلظ ربعة إلى الطول جمـيل الـصورة أدهـم اللـون، لا تمل من النظر إليه أسود العينين والحواجب والهدوب وجهـه كأنـه يقطـر الـدهن في عينـيه وسامة وبهاء خفيف شعر العارضين، فصيح اللسان عذب الكلام»[18] تدرج في مراتب التصوف حتى وصل إلى درجة القطبانية العظمى[19] وكـان يرتدي الأبيض من اللباس ويتعمم بعمامة بيضاء ونعالة أصفر طرابلسي[20] وكان يحمـل معـولاً من شجرة الزيتون المباركة ... مكتوب على وجهه الأول (الكافي) وعلى وجهـه الثانـي (الغنـى الفـتاح) وعلـى وجـه الثالث (الرحمن الباقي) وعلى وجهه الرابع (الرحيم الرزاق).

15- البرمونى: روضة الأزهار ص 150. ثم مصطفى بن رابعة، رسائل الأسمر: ص 37.

16- البرمونى: روضة الأزهار ص 150 ثم مصطفى بن رابعه: رسائل الأسمر: ص 39.

17- رسالة لراشد التي جمعها يحي المحمودي، المقرحي نقلا عن مصطفى بن رابعه: رسائل الأسمر. ص 39

18- محمد مخلوف المصدر السابق ص 72 نقلا عن مصطفى بن رابعة 39.

19- المصدر نفسه ص 118.

20- المصدر نفسه ص 119.

وعلى كل حال فصفات الأسمر جعلت منه مكانة بين المعاصرين والمؤرخين له والدراسين ومن يعمل على تدوين سيرته، ومنهم:

1. كريم الدين البرمونى وله كتابان في ذلك.
2. عبد الرحمن بن علي الملي قد دون سيرته في ثلاثة كتب.
3. سالم بن محمد السنهوري الذي دون سيرته في كتاب سماه: النور النائر لسيرة الشيخ عبد السلام الأسمر وغيرهم كثيرون[21].

وإذا نظرنا إلى ما دون حال عبد السلام الأسمر لا يصح الكثير حول شخصه وشخصيته ولكن الهدف الأساسي من هذه الدراسة هو أن الطريقة الأسمرية كنموذج كانت لا تختلف كثيراً عن الطرق الصوفية الأخرى فهي دعت إلى الجانب الديني وإلى الحذر من العدو والاستعداد لمواجهته وإن كانت هذه الدعوة لم تكن واضحة، ولكنها كانت في مجال الدين الإسلامي وتؤكد على ذلك في بطن المراسلات التي قام بها الشيخ عبد السلام الأسمر وذلك إلى المشايخ النشطين في كل مكان، وقد فصل الدكتور مصطفى بن رابعة في كتابه المنشور هذه الدعوة التي تدعو إلى الوعي والانتباه لما يحيكه الاستعمار في ذلك[22] من هنا أنشأ الشيخ عبد السلام الأسمر زاويته وتركها منارة اخترقت الزمن لما من عالمها من إمكانات علمية وثقافية واقتصادية قاومت الصعوبات التي واجهتها وانتصرت عليها مثل تحدى الولاة شح البلاد، والسيطرة العثمانية غير المنتظمة[23].

ظهور الاستعمار الأوربي الحديث

بدأ الاستعمار الأوربي الحديث ببداية عصر النهضة في أوربا في وقت بدأت فيه عوامل الضعف والانحلال في الوطن العربي كما سبق ذكره أي منذ بداية الحرب الصليبية في القرن الحادي عشر الميلادي[24]، وما لحق في ذلك من آثار سيئة بالمسلمين طوال القرون اللاحقة في شرق البلاد وغربها[25]، وازداد في القرن التاسع

21- مصطفى بن رابعة: المصدر السابق ص 40-42.
22- المصدر نفسه ص 126-179.
23- المصدر نفسه ص ص 40-41.
24- محمود عبد اللطيف البرغوثي، تاريخ ليبيا الإسلامي، منشورات الجامعة الليبية 1971 ص 511.
25- محمود شاكر، العالم الإسلامي 1403 ص 185.

عشر الميلادي، ومن ذلك الزمن ظهرت الحركات الصوفية التي اهتمت بدعوة الشباب إلى الوعي القومي الديني والوطني بطرق مختلفة، في الوقت نفسه، كان حكام الدولة العثمانية يضربون بيد من حديد الذين يدعون إلى الاستعداد والمواجهة ضد العدو المرتقب من قبل الأوربيين خلال المدة الفارطه، وظهر الاهتمام أكثر بضرورة التصدي للاستعمار بكل الوسائل الممكنة وكان للشعور الوطني بأن العثمانيين كانوا غير مهتمين بذلك، ويخشون أية حركة إنها ربما تكون مناوئة ضدهم لأن تصرفهم ضد المواطنين كان غير مقبول، وذلك إذا ما قامت أية حركة لم تؤخذ في الاعتبار[26].

وكان التبرك بالأولياء الصالحين سائداً بين الناس حتى إنه دارت كثير من المعارك قرب أضرحتهم أثناء الغزو الإيطالي لليبيا 1912-1932م وكان من بينها معركة سيدي سعيد قرب بوكماش في يوم 26-27-28 من شهر يونيو الصيف لسنة 1912 وكانت معركة طاحنة سقط فيها الكثير من الشهداء بين القتلى والجرحى، وكذلك معركة سيدي علي يوم 14-17/1913 ثم معركة سيدي عبد الصمد وكلها قرب زواره بغرب ليبيا ثم معركة سيدي عبد الله قرب درنة وقد أثبتت هذه الظاهرة بوضوح أثناء الغزو الإيطالي لليبيا حينذاك وكان لظهور الاستعمار أثره في ذلك باهتمام مريدي الزوايا بهذه الظاهرة.

وما أن حل القرن العشرون حتى استولى الأوربيون على منطقة الأقطار العربية، وبدأت فرنسا بالاستيلاء على الجزائر منذ سنة 1830 تم تونس سنة 1881 ثم المغرب سنة 1912، وأما بريطانيا فقد احتلت عدن سنة 1839م ثم بعد سنة 1882 استولت على مصر وبعض مناطق الخليج العربي، وبعد الثورة العربية استولت فرنسا على لبنان وسوريا ثم بريطانيا التي احتلت العراق والأردن وفلسطين، وعبثت ما عبثت في الوضع العربي الذي مازال يعانى منه العرب حتى يومنا هذا[27].

دور الطرق الصوفية في تذكية الروح الوطنية

تبين أن الصوفية عملت على جمع مريدين أينما أنشئت في البلاد العربية

26- مصطفى حامد رحومة: المقاومة الليبية التركية حول بوكماش ضد الغزو الإيطالي 1911-1912 مركز جهاد الليبيين 1998 ص ص 281-282 ثم في 189.

27- محمود شاكر: المصدر السابق ص58 ص ثم مصطفى حامد رحومة، التضامن العربي الإسلامي مع المقاومة الليبية.ص 318، 2006م.

وتطورت، حيث إنها ربت مريدين على منهج ديني يربط المريدين بالتسبيح والتهليل والتكبير وضرب البنديـر، وتوحيد الخالق والتعريف به، وكان أسلوب هذه الطرق الصوفية لا يختلف عن بعض وهو ضرورة تدعو إلى ما جاء به القرآن والسنة النبوية، وكما هو معروف لابد من الدعوة للوحدانية لله وعبادته وقد ذكر في منهج هذه الطرق الصوفية الجهاد في سبيل الله والوطن والتضحية والفداء رغم الحذر والصمت على ذلك لأن أصحاب المعرفة الدينية والمشائخ المتصوفين الذين بلغوا مرتبة عالية في التصوف مثل الشيخ عبد السلام الأسمر الذي بلغ مرتبة القطبانية كان متميزا، وأن أتباعه ومريديه كانوا قد سلكوا مسلكه وتعمقوا في التصوف والتأمل والالتزام بكل القيم الدينية التي كان من بينها التضحية والفداء في سبيل الله والوطن[28] والعرض، وما هو العدو الذي يمكن مواجهته والوقوف في وجهة غير المستعمر، ولذلك بدأت الطرق الصوفية في تطبيقه على هذا الأساس غير أن الدعوة لم تصل إلى الجميع، بل ركزت على الجانب الديني أكثر[29].

مكافحة الطرق الصوفية للاستعمار الحديث

عندما نشأت الطرق الصوفية في العهد الحديث ظهرت في ليبيا في العهد العثماني وربما قبله وكانت النظرة السائدة بين الناس أن الهالة التي وضعتها السيطرة العثمانية أن من خرج عن طاعة السلطان العثماني خرج عن طاعة الحكم الإسلامي وبالتالي يهدر دمه الأمر الذي كان يطبق أيام الدولة الإسلامية في المراحل الأولى. وقد طبق العثمانيون ذلك عندما جاء السلطان سليم الأول سنة 1917م وأخذ السلطان العثماني الخليفة المتوكل العباسي الذي وجده في قصر، وطلب منه التنازل له عن مكانته التي تعني خادم الحرمين الشريفين[30]، ولم تظهر هذه المشكلة إلا بعد أن شعر السلاطين العثمانيين بالضعف في عهد عبد الحميد الثاني لذلك طلبوا تطبيقها يعنى هدر الدم لمن يخرج عن طاعة السلطان، فأصبح ذلك مرتبطاً بالعقيدة الإسلامية التي كانت سائدة في العهد العباسي، وإن لم تتمكن الدولة العثمانية تطبيقها في البداية، وعندما ضعفت الدولة لجأت إليها فيما بعد واستمر الحال حتى ظهر الاستعمار الحديث ازداد التمسك بالدولة العثمانية خاصة في ليبيا لأن التدخل الإيطالي جاء إليها مؤخراً بخلاف

28- مصطفى حامد رحومة: المصدر السابق: ص 316-317

29- مصطفى بن رابعة: المصدر السابق ص 6

30- محمود شاكر: المصدر السابق، ص 77.

المشرق العربي الذي تعرض إليه الاستعمار بعد ليبيا[31].

تميزت الحركة السنوسية في مقاومة الغزو الإيطالي سنة 1911-1932م بظهور عدد من المناضلين بل كل الليبيين حملوا السلاح، وقاوموا الاستعمار الإيطالي، وهو ما حدث للشيخ عمر المختار شيخ الشهداء، والمعروف لدى الجميع، وكذلك السيد أحمد الشريف وعمر المختار الذي شارك في الجهاد واستمر حتى قبض عليه الإيطاليون وحكموا عليه بالإعدام ومات شهيداً عليه رحمة الله، وهو النموذج المعروف في الجهاد الذي واصل حركة المقاومة، وكان رمز المجاهدين. وهو من طلبه ومشائخ الدعوة السنوسية وكان بزاوية القصور بالمرج[32].

وكان حرص الدولة العثمانية على الأمن والاستقرار كثيراً فلم تهتم بتدريب المواطنين وبتطوير القوات المحلية، الأمر الذي منع وأهمل الاستعداد للمواجهة الوطنية، ويتضح بذلك أن الحركات الصوفية ومريديها قد واجهوا الاستعمار بشكل لم يثر الاهتمام، ولكن شغفهم الديني وحبهم الذاتي جعلهم ينخرطون في حركة المقاومة الليبيين ضد المستعمر الإيطالي، حيث إن انخراطهم في الزوايا والكتاتيب هو الذي علمهم أصول الدين وحثهم على التعلم وعلمهم القراءة والكتابة التي هي نور المعرفة[33].

نتائج الجانب الديني في التحدي للاستعمار

اتضح من الطرح السابق بأن الحركات الصوفية التي نشأت بليبيا منذ مجيء الإسلام إليها كان هدفها ترسيخ الدين وفروعه بين الناس، وكانت قد نجحت في ذلك إلى حد كبير بأنه لم يبق دين غير دين الإسلام بليبيا، وهذا جعلنا نفخر بذلك كثيراً، ويقول الله تعالى في كتابه القرآن الكريم: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60]، والقرآن مليء بمثل هذه الآيات الدالة على الاستعداد للجهاد والاهتمام به والطرق الصوفية في مناهجها الدينية لم تترك مثل ذلك فهي حريصة على ما يمكن تعلمه لمريديها وقد بنى الدين الإسلامي على

31- مصطفى حامد، المصدر السابق، ص 212.

32- مصطفى حامد رحومة: المقاومة الليبية التركية ضد الغزو الإيطالي، أكتوبر 1911 أكتوبر 1912، المصدر السابق 216.

33- تيسير بن موسى: المصدر السابق ص 325-326-327.

ذلك بكل دقة فقد دفع المسلمين للجهاد، الأمر الذي جعلهم يوصلونه إلى معظم بقاع العالم، وهذه القيمة الجهادية التي اهتمت بها الصوفية هي نفسها التي يحتاجها المسلمون في حاضرهم في هذا الوقت

الذي أصبح فيه الجهاد ضرورة لابد منها والدعوة له لا مفر منها لرد الظلم علينا، وعلى أبناء فلسطين والعراق والصومال والسعي لمساعدتهم بكل الإمكانات المتاحة.

وفى الختام أوجز هذه النقاط:

- الطرق الصوفية التي نشأت في البلاد العربية كانت أمامها إشارات استفهام كثيرة كان من بينها وجود الحكم العثماني الذي كان يرى أن النشطين ربما يعارضون إذا تركوا على حالهم ضد وجودهم في أي بلد وجدوا فيها والتي طال عهدهم فيها، والذي زاد عن أربعة قرون ونيف خصوصاً في العهد العثماني الثاني أيام السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1908م)[34]. وما تم في عهده من أحداث وزيادة في الوعي القومي.
- الشعور بالخوف من المطاردة السياسية التي لحقت بمعظم أصحاب الطرق الصوفية منذ القدم من ذلك ما حل مع الشيخ عبد السلام الأسمر في العهد الحفصي والمشائخ الذين كانوا يحكمون طرابلس فهذا الشيخ انتقل من زليطن إلى ساحل الأحامد بالخمس ثم انتقل إلى طرابلس ونفي إلى غريان ثم إلى بنى وليد ثم انتقل إلى تاورغاء ومن تاورغاء إلى مصراته وبعدها إلى زليطن مكان زاويته وبقي فيها كما اتضح سلفا، ولم يسلم بقية رؤساء الحركات الصوفية وهذا اضطرهم إلى الالتزام بالسرية.
- اعتماد الطرق الصوفية الجانب الديني لعدم تجهيزها في الجانب السياسي، وقد ساهمت في الجانب الأمني إلى درجة أنها ساعدت على حماية تجارة القوافل مدة من الزمن وهو ما قامت به الطريقة الصوفية السنوسية أيام مؤسسها الأول محمد علي السنوسي[35].
- إظهار التحدي للاستعمار: المريدون للطرق الصوفية بالتوحيد والتسبيح وضرب الدفوف فحققوا بذلك هدفهم المراد منه مجابهة التدخل الأجنبي، ورغم ذلك فقد

34- أحمد عبد الرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص 240-245.

35- صادق مؤيد العظم أمير لواء ومستشار السلطان عبد الحميد الثاني، رحلة في الصحراء الكبرى في إفريقية، ترجمة عبد الكريم أبوشويرب، ومراجعة صلاح الدين حسن السوري، مركز جهاد الليبيين 1998 ص ص 120-121.

تمت مطاردة المنتسبين إلى الطرق الصوفية، كما حدث لجمعية سراج الدين التي أنشئت في طرابلس، إذ حوكم مؤسسوها في ذلك.

- تأهيل مريديها بأن يكونوا مجاهدين ويدعون إلى الجهاد، ويكفى أن من تعلم في الزوايا بشكل عام في زمن لم توجد فيه مدارس كانوا هم عماد المعرفة وأساتذة التعليم، والذين استطاعوا أن يحملوا شعار الجهاد وإن كانوا بشكل يختلف فيه الواحد عن الآخر.
- أسهمت الزاوية الأسمرية في العمل على ربط المجتمع بربط أفراده بعضهم ببعض ودعتهم بان الاستعمار كان مشكلة ولا بد من التخلص منهما بمكافحته مهما كانت الظروف.
- أعطت الطرق الصوفية الفرصة بدفع الناس لمجابهة المخاطر المحدقة، ولكن ما حدث كان مجرد شعور غوغائي انتهى بانتهاء زمن الدعوة له، ولم يكن كافيا لترسيخ الاتحاد فعلا أوجد ربطا واتصالا وثيقا بين هذه الطرق ودعم الجهود في ذلك رغم المنهجية الصارمة التي اعتمدتها هذه الطرق، عبادة الله والوحدانية ويكفى القول بأن الطريقة الأسمرية قد تميزت عن غيرها من الطرق الصوفية بأنها نجحت في استمراريتها وعناية مؤسسها بتوسيع نشاطه الديني بمراسلة أعداد كثيرة من العلماء والمفكرين، وذلك من أجل ترسيخ الجوانب الدينية التي كان الناس في حاجة إليها.
- إمكانات الزاوية أعطت دفعاً اقتصادياً ساعدها على الاستمرار والتطور والتحول حتى أصبحت جامعة للتدريس، وتنويع المعرفة التي جاء إليها من كانت لديه طموحات للتعمق في الدراسات الإسلامية.
- تألفت الأسمرية حتى أصبحت تضم أكثر من كلية متخصصة في جامعة عرفت بالجامعة الأسمرية.
- مازالت هذه الجامعة تطور من حجمها وتستقطب الدراسيين من بلدان العالم بشكل عام. وبذلك نقول إن الزوايا الدينية وجدت في وقت صعب، غلب عليه التدخل الاستعماري الذي أضعف التيار الوطني وأخذ بذلك الحركة الوطنية.